الأطباء على مائدته ممن كان مخالفاً للبرامكة إلاّ جبريلَ بن بختيشوع ،[1] وقد طوَى عنه سرَّ ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلاّ كلمةَ حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم ،[2] وأنا اليومَ أسير حثيثاً حتى لا يفوتَنى الرجوعُ إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكِب الحُجاج .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم نُسْقَى إذا انقطع الغمامُ »

أكتب هذه الرسالة إليك والدمعُ جارٍ فى الآماق ليس على البرامكة وهم أحياء فى الناس ، ولكن على الدنيا التى ذهب خيرُها وعفَّت البليةُ رسومَ محاسنها ، حتى كأنها طَلَلٌ من هذه الاطلال التى يهجُرها الأنس ولا يقف عندها إلاّ الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرَّقة قد وافانى من قبل البرامكة رسول يستقدمنى إليهم ويعلمنى أن الكتاب الذى أحمله الى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقينى عنده ويمنعنى من الرجوع الى الحضرة لما داخله فىّ من الرِّيبة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الاشارة ، فأصابنى من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحَيْن ، لأنى ما كنت أرانى ناجياً من وقوع الغدر بى ووصول المكروه الىّ . ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظَنة بى بعد أن أديت رسالته حقَّها من الاخلاص ،

---

(١) ذكر ابن خلدون فى المقدمة ١٦ أنه كان ينظر فى طعام الرشيد

(٢) الاتليدى والفخرى

وخدمته خدمةَ الناصح الأمين ، فلم أجد فى نفسى علةً إلا المودةَ التى بينى و بين البرامكة ، [١] فأتانى أن أنضمّ اليهم ، فقمت لساعتى وتبدّلت بِزِيٍّ زِيَ الحِجازِ الجاف ثم ركبت إلى بغداد متنكراً كيلا يعرفنى أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت فى أهلها ذلك الخمولَ الذى يقع فى الجماعة من هول عظيم ، فاستدللت بذلك على وقوع الأمر بينهم و بين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلَقة وعلى أبوابها حرسُ الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودّت الدنيا فى عينى وامتلأ قلبى من الوحشة وكدت أفقِد إحساس رجلىّ من الجَهْد ، إلاّ أنه لم يكن لى وأنا طَلِبَةُ الخليفة أن أطيل الوقوف تِلْقَاءَ دورهم ، فرجعت أمشى على غير دراية لعلى أصادف صديقاً أتوجع إليه وأستطلع أخبارهم من قِبَله ، حتى وصلت إلى دار إسحق النديم [٢] فدخلت الدار وحسَرت اللثام عن وجهى ، فلما عَرفنى ترقرقت عيناه دموعاً ، وقال بم أندُب البرامكة ؟ أأعزيك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام بفقدهم ؟ وبكى حتى حنقته العَبْرة ، وكنت فى ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ، ولم يكن إسحق يكلمنى عن أمرهم مع الرشيد إلاّ كلاماً متقطعاً ممزوجاً بالزفرات . . .

قد علِمتَ مما مضى إليك فى الرسالة السالفة موقِف البرامكة مع الرشيد ، هو يحاول الايقاع بهم حسداً على ما صار إليهم من النعمة ، وهم

---

(١) ذكره الأغانى ١ : ٢٥ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومن هو مشهور بمخالطتهم مذكور فى كتب التاريخ (٢) فى الأغانى ٥ أن اسحق بقى ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر

يسلكون معه مسلكَ المودة ليرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلاّ أثاروا الخُراسانيين خروجاً عليه فى دعوة أهل البيت . وعلمتَ أنّ الفضل بن الربيع كان موقناً بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة ، وأنه كان يخوّف الرشيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة فى موقف بعيدٍ عن التخلص من دَهائهم ، إذ كانت الملوك طوعَ أمرهم وأموالُ الدولة كلُّها بأيديهم ، حتى ملأ صدره من عداوتهم . ثم علمتَ أنّ الرشيد كان قد أهداهم مسروقاً غلامَه ليوهمهم رضاه ، ولكنك تعلم أنه كان بينه وبين هذا الغلام مواطأةٌ على نقل أحاديثهم إليه وعدٌ أنفاسهم عليهم ومراقبتِهم فى جميع حركاتهم خديعةً منه ، حتى إذا نقل اليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر المباركة عمَد إلى هدر دمه الزكىّ ، ووجهنى إلى الرَّقّة مثلَ المجرمين الذين فى نفوسهم تَبِعة من شرٍّ نعوذ بالله من سُخْطِه .

وقد حدثنى إسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكَبهم فيه قد ركِب إلى أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشمىُّ وجماعة من أقاربه ، وبينما هو يسير إذ نظر إلى موكِبٍ عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لاسماعيل يا أسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يميناً وشمالا وإلى من معه فاذا هم شِرْذِمَةٌ قليلون ، ثم نظروا إلى الموكِب الذى فيه جعفر فلم يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبُه ؟ فقال يا سيدى قد مضى أخولـ فى طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ماراآنا أهلا لأن يَزيننا بموكبه و بجمِّلَنا بجيشه ، فقال عفواً يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ما تعدّاك ولا سار إلاّ بين يديك . ثم سار حتى انتهى إلى ضَيْعة عامرة ومواش كثيرة وعِمارة - نة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيْعة ؟ فقال لأخيك جعفر ،

فسكت الرشيد وتنفّس فى كَمَد ثم سار وما زال يمر بضِياع بعضُها أعمرُ من بعض وكلما مرّ بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هى لجعفر ولأخوته ، حتى وصل إلى الحضرة ،فلما خلا مجلسُه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فانى لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعةً من ضِياع البرامكة [1] على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق فى جميع البُلْدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالُهم وجميعُ ما يملكون هو لك ، فنظر اليه نظرةَ جبّار وقال والله يا اسماعيل ما عدّ البرامكةُ بنى هاشم الاّ عبيـدَهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعـمة لبنى العباس الاّ وهم المنعمون بهـا عليهم ، فقال أميرُ المؤمنين أبصرُ من غيره بخدمه ومواليه ، فقال والله يا اسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى بك تخبرُهم به فتتخذ به يداً عندهم ، وإنى آمرُك أن تكتُم هذا الأمرَ فانه لم يعلم به أحد غيرُك ، ومتى بلغهم شىء مما جرى بينى وبينَك علِمت أنه ما أفشاه الاّ أنت ، فقال ياأمير المؤمنين أعوذ بالله أنّ مثلى يُفشى سرَّك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو فى محل من قصره يُشرف على دِجلة وبازائه منـازلُ البرامكة التى كانت محفوفةً بالمين والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمـان والقواد والمواكب وليس على باب دارى أحد ، فقال يا أمير المؤمنين ناشدتك اللهَ ألاّ يعلَقَ بنفسك شىء من هذا ، فانمـا جعفر خادمُك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه بابٌ من أبوابك فاذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقـال والله إن

(١) الدميرى : ١٥٤ والعقد الفريد ٣ : ٣١٠

البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتى الى محبة العلويين وتعزيز شِيعتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك[١].

وكان جعفر فى ذلك الوقت قد عزم على الركوب الى خُراسان[٢] وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من السوء ، فما أحبّ أن يتركهم بغير حِراسة ، وانما أبقى فى يد الفضل رجالا يعرِف فيهم الأمانة ليقيهم مكايدَ الرشيد حتى اذا قدِم الحرمين فى دعوة أهل البيت وجد فى العراق من يستعين به على العباسيين . غير أن الرشيد قد فطَن لما كان يباشره من تعبئة الجند فأيقن بالاشراف على الخطر ، إلاّ أن يتمحّل فى أمر يغلبه به قبل ركوبه الى خُراسان ، فأرسل إلى بنى هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوِّط دورَ الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مَزْيَد الشَّيْبانى[٣] أنه إذا ركِب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوِّط البرامكة ويقبض عليهم ،[٤] واستبقى الأمر سراً لم يستخدم فى قضائه إلاّ جماعة من أقاربه[٥] دون الغلمان الذين كان يغمُرهم جودُهم وكرمهم ، ثم أرسل فى تلك الليلة إلى جعفر من يقول له إنه يمكِّنه من بيوت المال أن يتناول منها مايشاء ، ويأخذَ من الجند الى خراسان من ينتخبه ويريده ، وأن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة ، حتى لا يفطُنوا لما أخذ فى تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما فى تمحُّل الرشيد من المصانعة والرِياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به

---

(١) أبو الفداء ٢ : ١٧ (٢) ذكر الاتليدى أن جعفرا كان عازماً على الركوب الى خراسان فى ذلك الوقت (٣) وقد تقدم أنه كان منحرفاً عن البرامكة (٤) ابن الأثير وأبو الفداء والعقد الفريد (٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

لا أنه يريد نكبتهم فى صباح تلك الليلة .

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسروراً [١] وقال له قد انتخبتك لأمر لم أر له محمداً ولا عبد الله ولا القاسم [٢] فحقق ظنى فيك واحذر أن تخالف فتهلك ، فقال مسرور لك على إمرة مطاعة ، فمرنى بقتل نفسى أفعل ، فقال له امضِ الساعةَ إلى الحديقة وحوِّطها بالحرس وضم إلىّ جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى جعفر وجئنى به وقل له إنه وردت كتب من خُراسان ، فاذا دخل الباب فلا تدع من معه يدخل بعده ، فاذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعنى فى ذلك ، وإياك إياك أن يفوتك الأمر . فسار مسرور إلى جعفر فأصابه فى داره قد طرح نفسه ليستريح ، فقال له يا سيدى أميرُ المؤمنين يدعوك لرسائلَ وردت الساعةَ فى خريطة البَريد من خُراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلّد سيفه ثم ركِب فى جماعة من الحرس والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل الباب طلع عليه من فى الحديقة من الحرس وحاولوا ردّ غلمانه وهم غير مأمورين بالقتال ، فانفرد به مسرور و بضعةَ عشرَ رجلا دخلوا معه الباب فجرد عليه السيف وصاح بمن معه من العبيد فأهدروا دمه . وإنى لست أنسُب الشر الى مسرور هذا الخادمِ اللئيم ، فما هو الاّ ذئب من استرعاه وهو الرشيدُ ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم ، ومع ذلك إنى لا أبرّئه من تَبِعة ذلك الأثم الفظيع ، ولا أرى بينه و بين شديد العقاب الاّ الموتَ الذى يساق بعده الى دار العذاب .

---

(١) الاتليدى والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣

(٢) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الامين والمأمون والمؤتمن أولاده

هذا ما بلغنى من إسحق ثم سمعت فى أحاديث الناس أنّ جعفراً لما صار فى وسْط الحديقة ولم ير معـهُ الجند ارتاعَ وندم على ركوبه فى تلك الساعة ، فقال لمسرور ياأخى ماالقضيةُ ، فقال ياسيدى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك، فيقولون إنّ جعفراً بكى حينئذ وجعل يقبل مسروراً ويقول له أنت تعلم إكرامى لك دون خَدَم الرشيد وأن حاجاتِك عندى مقضية فى جميع الأوقات ، وأنت تعرف مكانتى عند الرشيد وما يوجّه إلىّ من الأسرار، ولعلَ أن يكونوا بلّغوه عنى باطلا ، وهذه ألفُ ألف دينار، وفى رواية عشرةُ آلاف ألفِ دينـار أدفعُها إليك الساعةَ وخلِّنى أهيمُ على وجهى ، فقال لا سبيلَ إلى ذلك ، فقال احملنى إليه وقِفْنى بين يديه ولعله إذا وقع نظرُه علىَّ تُدركه الرحمة فيصفحَ عنى ، فقال وهذا أيضاً لا سبيل إليه ، [1] ولا يمكننى مراجعتُه ، فقال توقف عنى ساعةً وامض إليه وقل له إنك فرَغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ماتريد ، وإنى أُشْهِدالله وملائكته على أنى أشاطرك نِعمتى وأوليك من الأمور جسيما إن فعلت ذلك وسَلِمتْ لى نفسى ، ولم يزل به وهو يبكى فيما يقولون طمعاً فى الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ، ثم إنه وكَّل به غلماناً من السودان يحفظونه ومضى الى الرشيد وهو جالس يقطر غضباً ، فلما رآه قال له ثكلتك أمُّك ما ذا فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرَك ، قال فأين رأسُه ؟ قال فى قبة الحديقة ، قال فأتنى بها الساعةَ ، [2] فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانيةَ بل سلّ سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشيد يشخُب دماً ، فيقولون إن الرشـيد تنفّس الصُّعَداء وبكى بكاء

(١) الأغانى ١١ : ٥٤ والاتليدى ١٣٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ٣٦

شديداً ، وجعل يقول كالمعاتِب يا جعفر ألم أحِلَّك محلّ نفسى ؟ يا جعفر ما كافأتنى ولا عرفت حقى ولا حفظت عهدىْ ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى ، يا جعفر قد غرّتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول هذا وهو يقرَع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سَلْخ المحرم[1] وأول صفر[2] .

وقوع التوانى فى الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بى هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفسِ الزكية بقضاء لا حيلةَ بعده الاّ اللوعة والندم . فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هَوْلا ينزل به وهُو لا يدرك سرَّه . ولا يجد لنفسه مَرَداً يتقى به شره . وإن كان يسوءنى من الرشيد احتيالُه فى مصانعة البرامكة[3] قبل ركوب جعفر الى خُراسان ليذهَلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظناً بزوال ماعنده من الموجدة ، مع أنه كان يضمر قتلهم[4] (والعياذ بالله من شرور النيات) . فإنى لَيَسوءنى أكثرَ من ذلك تتبعُه النقمةَ فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقتاه) جَهْد شديد يقاسيانه فى الحبوس ، فانهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصُلان عليه ، ويشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان من يطبُخه لهُما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القِدْر[5] مع جلالة

---

(١) ابن خلكان ٢ : ١٥٢ (٢) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦ (٣) فى الأغانى ١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة (٤) فى العقد ٣ : ٣١ انه كان يريد قتلهم (٥) الاتليدى ١٧٨

قدرهما فيارحمتا لهؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدراً [١] تنعاه عليه الأبا ويُسأل عنه فى يوم القيام . وإنى لأحسَب جعفراً مع ما أصابه من الأ الفظيع أكبرَ حظاً من أبيه واخوته ، إذ قدِم على ربّه شهيداً فى دعوة أهل البيت ولم يصِر إلى هذا الهوان [٢] الذى صاروا إليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة . والرؤساء من أهل التَّجِلّة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منَعَة لم يكن مثلُها لدولة من دول الاسلام .

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو استنبط حيلة لانقاذهم مما يعانون من الشدة ، غيرَ أنى رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذى أرومه إلاّ بالقوة التى تغالب الحَرَس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد فئةً قليلة من الرجال وأكثرُهم داخلٌ فى جيش الخليفة وتحت إمرة العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعُدْوان قبلَ العودة إلى فارس ليست من الرأى الصواب ، ولم يكن إحجامى عن ذلك خوفاً على نفسى من القتل لأن النفوس لا يعظُم بذلُها فى سبيل البرامكة ، ولكن رحمةً بهم من جور الرشيد الذى يضيّق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس الى الوصول اليهم أو الثأر بدمهم ، فقد بلغنى أنه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر بجعفر ؟ وهو يقول والسيف صَلْتٌ فى يده . ياضُلَّ ما تجرى به العصا ، وا جعفراه . وا سيّداه . والله لأقتلن قاتلك ولأثأرنَّ بدمك [٣] عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرِّز سيفَهُ الكريمةِ نفسُهُ على التضييق عليهم وتفريقهم فى الحبوس المنقطعة

---

(١) الفخرى (٢) ذكر هوان البرامكة فى محبسهم ابن الأثير وابن عبد ربه والابشيهى والاتليدى وأبو الفرج وغيرهم (٣) ابن الأثير ٦ : ٦٦

وقبض ضِياعهم عن أهل بيتهم[١] حتى يقتلهم بالشدة التى هى أمرُّ من القتل

وقد مضى علىَّ اليومَ فى بغداد وأنا متقطع النَفْس سبعةٌ وأربعون يوماً لم آلُ فيها جُهداً للوصول اليهم فلم أحصُل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال ، وكنت أحب أن ألقَى أحداً من خَدَمهم وحُجابهم فلم أظفَر بواحد منهم فى بغداد ، وكأنى بهم قد تصدَّعوا فى الآفاق[٢] فى جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم[٣] ومَن هو معروف بمخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب ، غيرَ أنى رأيت فيمن بقى من الطامعين فيهم دموعاً يسترونها عن العيون ، وما وجدت منهم الا منقبِض النفس ومن يُذيبه الأسفُ عليهم حتى كأنهم صدْع واحد فى لوم الرشيد على قتلهم[٤] فما أذكر أنى نزلت مرة الى السوق الاَ نظرت رقاع الأشعار مُعَلَّقة على الحيطان رثاءً لجعفر وندباً للدنيا لما لحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما بقى فى ذهنى من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرَّقاشى أو أبا نواس[٥]

ألانَ استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسكَ من يُجدى ومن كان يجتدى

فقل للمطايا قد أمِنتِ من السُّرى ... وطىِّ الفيافى فدفداً بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفِرت بجعفر ... ولن تظفَرى من بعده بمسوَّد

وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطَّلى ... وقل للرزايا كلَّ يوم تجدَّدى

---

(١) أبو الفداء ٢ : ٨ والأغانى ٨ : ٧٩ والاتليدى ١٧٤ وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٢) الاتليدى ١٧٤ (٣) الأغانى ٣ : ١٨٣ (٤) أبو المحاسن ١ ٥٢٧ والفخرى وابن الأثير ٦ : ٧ والعقد الفريد والاتليدى (٥) ابن الأثير ٦ : ٦٤ وأبو الفداء ٢ : ١٨ والمسعودى ٢ : ٢٧٩

ودونكِ سيفاً برمكياً مهنّداً أصيب بسيف هاشميّ مهنّد

وقولهم[١]

يامنزلاً لعِب الزمانُ بأهله فأبادهم بتفرق لا يُجْمع
إن الذين عهِدتهم فيما مضى كان الزمان بهم يَضُرّ وينفع
أصبحت تُفْزِع من رآك وطالما كنا إليك من المخاوف نفزع
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقِي الذين حياتُهم لا تنفع

وقرأت رُقعة مكتوباً عليها هذه الأبياتُ وأظنها من نظم أنس بن أبى شَيْخ النصرى[٢] صاحبِ جعفر برَّد الله مضجَعه وسقى ضريحه صيِّب الرحمة والرضوان

لَعمرُك ما فى الموت عار على الفتى إذا لم تُصبه فى الحياة المعاير
ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعاً فلا بدّ يوماً أن يُرَى وهو صابر
فلا يُبْعِدَنْك الله عنى جعفراً بروحى ولو دارت علىّ الدوائر
فآليت لا أنفك أبكيك مادعت على فَنَنٍ ورقاء أو طار طائر[٣]

وقال علىّ بن أبى معاذ[٤]

يا أيها المغترُّ بالدهر والدهرُ ذوصَرْف وذوغدر
لا تأمَنِ الدهرَ وصولاتِه وكن من الدهر على حِذْر
إن كنت ذا جهل بتصريفه فانظر إلى المصلوب بالجِسْر
وخذ من الدنيا صفا عيشِها واجرِ مع الدهر كما يجرى

---

(١) الاتليدى ١٨٠ (٢) ذكره صاحب الأغانى ١٧ : ٣٣ وقال صاحب العقد الفريد ان الرشيد قتله بعد نكبة البرامكة ١ : ١٨٨ (٣) الأغانى ١٥ : ٣٦
(٤) المسعودى ٢ : ٢٢٩

كان وزيرَ القائم المرتضَى ... وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها ... إليه فى البر وفى البحر
يُشَيِّد الملك بآرائه ... وكان فيه نافذَ الأمر
فبينما جعفر فى ملكه ... عشيةَ الجمعة بالقصر
يطير فى الدنيا بأجناحه ... يأمُل طول الخُلْد والعمر
إذ عثر الدهر به عَثْرةً ... ياويلنا من عثرة الدهر
فغودر البائس فى ليلة السـ ... ـبتِ قتيلا مطلع الفجر
وجىء بالشيخ وأولادِه ... يحيى معاً فى الغُلِّ والأسر
والبرمكيين وأتباعِهم ... من كان فى الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد ... كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أُحْدوثة ... سبحانَ ذى السلطان والأمر

وقال سَلْم الخاسر

خوت أنجم الجدوى وشُلَّت يدالنوى ... وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمك ... بها يعرِف الهادى طويلَ المناسك

وقال أشجع السُّلَمى

ولّى عن الدنيا بنو برمك ... فلو توالى الناس ما زادوا
كأنما أيامُهم كلُّها ... وهى لأهل الأرض أعياد

وقال فيهم أيضاً

قد ساد دهرٌ بنى برمك ... ولم يدَع فيهم لنا لُقْيا
كانوا أولى الخير وهم أهلُه ... فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الأعرابى

لقد خان هذا الدهرُ أبناءَ برمك وأىُّ ملوك لم تخنها دهورها
ألم يك يحيى والىَ الأرض كلِّها فأضحى كمن وارته منها قبورُها

وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد

أصِبْتُ بسادة كانوا عيوناً بهم نسْقَى إذا انقطع الغمام
فقلت وفى الفؤاد ضريم نار وللعَبَرات من عينى انسجام
على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام
جزِعت عليك يافضلُ بن يحيى ومن يجزع عليك فلا يلام
هوت بك أنجم المعروف فينا وعزّ بفقدك القوم اللئام
وما أبصرت قبلك يابن يحيى حُساماً قدّه السيف الحسام

إلى أن يقول

أألهو بعدكم وأقرُّ عيناً علىّ اللهوُ بعدكمُ حرام
وكيف يطيب لى عيش وفضلٌ أسير دونه البلد الشآم
وجعفرُ ثاوياً بالجسر أبلت محاسنَه السمائم والقَتام
أمرُّ به فيغلبنى بكائى ولكنّ البكاء له اكتتام
أقول وقمت منتحباً لديه الى أن كاد يفضحنى القيام
أما والله لولا خوفُ واش وعين للخليفة لاتنام
لطفنا حول قبرك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام [1]

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوعَ الفتن فى الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم [2] وجعل عقابَ من يُقدم على ذلك القتل، [3]

(١) الأغانى ١٥ : ٣٦ (٢) الفخرى والنواجى والأتليدى (٣) الاسجاق ٩٨

وأمر الحرّاس أن ينزعوا الرقاع التى علقت فى الأسواق لئلا يثور ثائر الشَّغْب من الشَّغْب، [١] ولكنه لم يبلغ من ذلك الغايةَ التى كانَ يرومها من محو ذكرهم [٢] وطمس معالمهم بعد أن زيّنوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت فى قلوب الناس محبتهم [٣] بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء. ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لايقف عندما كان يراه من وقوع الفتن فى الدولة فربما وصل اليه أن فارس قد قامت فيها القيامةُ، وأنّ خُراسان [٤] قد عصفت فيها ريح الفتنـــة، والمغربَ قد تضعضع حكمه فى يد ابن الأغلب، والرومَ قد جاشوا فى بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعفِ آل الربيع الذين تولَوْا الوزارة بعدهم، ولا أرى لهم بها استمتاعا طويلا كما يشير أبو نواس الى ذلك بقوله [٥]

ما رعَى الدهرُ آل برمك لمَّا ... أن رمى ملكَهم بأمر فظيع
ان دهراً لم يرْعَ عهداً ليحيى ... غير راع زمامَ آل الربيع [٦]

حتى اذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبههم العزمُ ولا الحزم على ابلاغ الرشيد بأنفسهم [٧] بل اتخذوا طريقـة البلاغ على ألسنة الندماء، وفى ذلك يقول الشاعر استخفافاً بالأمر، وهذا بعيد عن سياسات

---

(١) أعلام الناس ١٧٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٢٦ وابن خلكان (٣) الأتليدى وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء (٤) الأتليدى ١٧٤

(٥) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول.

أيها الراكب المجد الى الفضـــل ترفق فدون فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت الى الفضـــل فهل فى يديك الا التراب

(٦) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٧) الأغانى ١٧ : ٤٦

الدول [١]

نقَض الذى أعطاكه نَقْفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه غُنْم أتاك بهَ الأله كثير

فتأمل (رعاك الله) هذه الدولةَ التى كانت زينةَ الدنيا فى أيام البرامكة [٢] كيف صارت الى رجال لا رأىَ عندهم ولا عزيمة، فان يبلغْك عن وهْنها خبر فيما بعد فاعلم أنّ صدور هذا الفتور ناشىء عن فتور الصدور. وهذه الجنود التى تراها فى قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل يدير به سياسته، فكم رأينا من دولة كانت فى العالم عظيمة فأعمى ساستَها الجهلُ فانحطت لفقْدان الحكمة. ودولةٍ كان أمرها فى توانٍ فتولاها رجال كُبرَاء أصلحوا ما فيها من الاختلال، وصعِدوا بها من العزة المقامَ الذى لا ينال. وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطلِ السياسة والتدبير اذ ضمّ الاسلام الى مصلحة واحدة من طرف المشرق الى أقصى المغرب، [٣] ثم أقام دولته على هذا الأساس المتين، ثم تأمل ما صنع الحَجّاج بنُ يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقربَ الى طاعة الأمويين من الشأم ومصر ثم انظر الى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبى مسلم (رحمه الله) وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفرس والأكراد الاّ بسياسة خالد البرمكى الذى ضمِن له الكفاية عليهم بالرأى [٤] دون الجنود. وانظر

---

(١) السيوطى وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغانى ١٧ : ٤٥ والمسعودى ١ : ١٥٨ (٢) الاتليدى (٣) نذكر هنا أنه ما توطد للاسلام ملك فى أفريقية الا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤) ابن خلكان ١ : ١٤٩

الى دولة الرشيد كيف زهت فى وزارة البرامكة بما لم تزهُ به دولة[١] الهادى، ووزراؤه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزهُ بقوة الجند كما يسبق الى وهْم الناس ، لأنه لم يكن لأبى مسلم من الرجال ما كان للملوك بنى أمية ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبلَه . وانما كان المعزّز لها رجالاً يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفى ضوئها يسيرون، ولاسيما هؤلاء البرامكة الأمجاد الذين حرَم الرشيد دولته مساهمتهم له فيها وتدبيرَ شئونها ، واستُ أعلم ما يكون من أمره مع صُهْب السِّبال[٢] ولقد قام به اليوم من الندم والأسف[٣] على جعفر والتلهفِ على ما سبق به القضاء ما يشغَله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرنى من هو مقرَّب اليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوةَ بنفسه على انفراد بعد مصرَعه الاّ أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فَرَط منه فى أمره ،[٤] واذا خلا مجلسُه أمر الحجّاب أن يُدخلوا عليه من يجدونه من الندماء[٥] ليستأنس بهم ويتسلّى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة فى دولته وكثرةَ الأراجيف .

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائراً على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد اليها ، وان كانت خواطرُهم متوافقةً فى لومه

---

(١) الزمخشرى فى ربيع الابرار (٢) هى لقب للروم (٣) الأغانى ١٧ : ٧٤ (٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨ (٥) ابن خلكان ١ : ٣٢ وذكر غيره أن الرشيد كثيراً ما كان يوجه خادمه فى طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم حينما يطلبهم

والبكاء على جعفر. فمن قائل إنه نكبه وأهلَ بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموالَ الجبايه، حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه، ومن قائل إنه حنِق على جعفر لتطاوله عليه فى الكلام اذ كان يقول لى لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكونن ذلك وبالا سريعاً عليه، [1] ومن قائل انه تنغّص من الفضل أن يكون أكرمَ من أولاده، ومن جعفر أن يكونَ أفصحَ منهم لساناً وأحكمَ سياسة، ومن محمد أن يفضُلَهم فى المروءة، ومن موسى أن يغلبهم فى الشجاعة فنكبه لذلك.

ولستُ أطيل عليك الكلام فى أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء. ولو أنى كتبتُ اليك غير ما ذكرت ما بقى لدىّ الاّ البكاء والنحيب، على أنى أحب أن أختم رسالتى اليك عنهم بذكر مأثُرَة من بعض ما صنعوا الى الورى من الجميل. وهى أن الرشيد [2] مع تشديده فى النهى عن رثائهم بلغه أنّ رجلا يحضُر ليلاً الى دورهم ويُنشد أشعاراً ويذكر محاسنهم ومآثرهم ويندُبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف، فدعا مسروراً هذا الخادمَ اللئيمَ وسارّه بالأمر وأمره بأن يمضى تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التى كانت مظهر الأُنس بما آتى الله أهلها من سعة الملك. وأن يستتر خلف بعض الجُدْران هو واثنان من الخدم سماهما له وأطنهما ياسراً ومَرْوان، [2] حتى اذ جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين

---

(١) الاتليدى ١٦٨ (٢) هذه القصة قد وقعت للمأمون لا للرشيد، وانما ذكرناها هاهنا تتميماً لمحاسن البرامكة

ومضى بهما آخرَ الليل إلى تلك المنازل ، فاذا هم بغلام قد أقبل ومعه بِساط وكرسيّ حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة ، فجلس على الكرسيّ وجعل يبكى وينتحب ويقول .

ولما رأيت السيف جَدَّل جعفرا ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسّفى عليهم وقلتُ الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففزِع فزعاً شديداً ، وقال دعونى حتى أوصى بوصية ، فانى لا أوقن بعد اليوم بحياة ، ثم تقدَّم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلّمها لغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مَثَل بين يديه زجره وقال له من أنت ؛ وبمَ استوجب البرامكة منك ما تفعل فى خربات دورهم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ للبرامكة أيادىَ خطيرة ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ؟ قال قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذِر بن المُغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى الدين واحتجتُ الى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه : أشاروا علىّ بالخروج الى البرامكة فخرجتُ من دِمَشْق ومعى نيِّف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية ، وليس معنا ما يباع أو يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لأستتر بها فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شىء عندهم ، ودخلتُ شوارع بغداد فاذا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ متزٍ بأحسن زِىّ وزينة ، وعلى الباب خادمان ، وفى الجامع جماعة جلوسٌ فطمِعت فى القوم ، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وكنت أقدِّم رجلا وأؤخر أخرى ، والعرق

يسيل منى ، لانها لم تكن صِناعتى وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقامو وقمتُ معهم حتى دخلنا جميعاً دار يحيى بنِ خالد ، واذا هو جالس على دَكة فى وسْط بستان فيه أطيبُ الرياحين ، فسلّمنا عليه فردّ علينا السلام وهو يعدُّنا مائة وواحداً ، وبين يديه عشرة من وَلَده واذا بغلام أمرد قد عذّر خدّاه قد أقبل من بعض المقاصير وَ بين يديه مائة بخادم متمنطقون فى أوساطهم بِمنْطَقَة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل وَاحد مِجْمَرة من الذهب ، فى كل مِجْمرة قطعة من العوْد كهيئة الفِهْر قد قرن بها مثلُها من العنبر ، فجلس الغلام بجانب يحيى ووُضِعَتْ تلك المجامر بين يدى الغلام ، ثم قال يحيى للقاضى زوّج بنتى عائشةَ من ابن عمى هذا فخطب القاضى خطبة الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثّار من بنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت فاذا الحاضرون بالمجلس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنا عشر رجلا ، واذا بمائة واثنى عشر خادماً قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صِينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدَىْ كل واحد منا صِينية ، فرأيت القاضى والمشايخَ يصبون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ، ويقومون واحداً بعد واحد حتى بَقِيت وحدى لا أجسُر على أخذ الصِينية فغمزنى خادم فجسُرت على أخذها ، وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية بيدى ، ثم قمتُ وجعلت ألتفت خلفى مخافَة أن أُمْنَع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك فى صَحْن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم ايتنى بهذا الرجل ، فَرُدِدْتُ إليه ، فأمرنى بصب الدنانير والصِينية وما فى كمى ، ثم قال اجلس فجلست ، فقال لى ممن الرجل ، ولم تلتفت خلفك ؟

فقصصتُ عليه قصتى ، فقال للخادم ايتنى بولدى موسى ، فأتى به ، فقال يابنىّ هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك و نعمتك ، فقبض موسى علىّ وأدخلنى إلى دار من دوره وأكرمنى غايةَ الاكرام وأقمتُ عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له إنّ الأمير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغيرُ خاف عليك اشتغالى اليومَ فى دار أمير المؤمنين فاقبِضه إليك وحوِّطه بنعمتكَ ففعل ذلك وأكرمنى غاية الأكرام ، فلما كان من الغد تسلّمنى أخوه العباس فبتُّ ليلتى عنده بين غِناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد ،[1] ولم أزل فى أيدى البرامكة يتداولوننى مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وأهلى أفى الأموات هم أم فى الأحياء ، فلما كان اليومُ الحادىَ عَشَرَ جاءنى خادم ومعه جماعة من الحَشَم والغِلمان فقالوا لى قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت ويلاه سُلِبْتُ الدنانيرَ والصينية وأخرجُ الى عيالى على هذه الحالة ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، ولما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فارفعها إلىّ فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، ثم بدت لى حُجْرة كالشمس بهاء وإشراقا ، واستقبلتنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وأهلى يتقلّبون فى الحرير والديباج ، وحُمِل إلىّ ألفُ ألفِ درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضَيْعتين من عمل السواد وتلك الصينيةُ التى كنت أخذتها بما معها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أأنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه .

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد

فلما نزلت بهم الفاجعات أجحفنى عاملك على العراق وألزمنى فى هاتين الضيعتين ما لا يفى دَخْلُهما به . ولما تحامل علىّ الدهرُ كنت فى آخر الليل أقصدِ منازلهم فأندُبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىّ وأشكر عطفهم علىّ . فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك فى أيام البرامكة . فملا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شِدّة بكائه ، قال له ياهذا قد أحسنّا إليك برد ما قد سُلِبَ منك فما يُبكيك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آتِ منازلهم فأبكيَهم وأندبَهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين وفعل بى ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدَمعت عينا الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابكِ ، وإياهم فاشكر ،[1] ولله درّ أبى نواس حيث يقول فى وداع الدنيا التى أوحشت لفقدهم

سلام على الدنيا إذا ما فُقِدْتُمُ ... بنى برمك من رائحين وغاد[2]

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء وخوف من الرشيد أن يُعْلِمه بموضعى الرقباء فيقطعَنى ما ينالنى منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم فى خُراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليمن ، لأنى علمت من بعض المقرَّبين إليه أنه يطلبنى طلباً حثيثاً ، وقد جعل لمن يأتيه بى مالا جزيلا ، وربما كان هذا الكتاب آخرَ

---

(١) الفخرى والأتليدى ١٩٩ والأبشيهى ١ : ٢٤٣ (٢) الوطواط ٦١٣

عهدى بمراسلتك بعد اليوم . . . . وإنْ كنتَ قد رأيتَ فيما تقدم إليك من الكتب السالفة أنّ العرب قد حصلّوا فى زماننا هذا مالم يختلج فى صدورهم زمنَ الخلائف ، ونبغوا النَّبْغَةَ التامةَ فى جميع الفنون والصناعات والمعارف ، وتبحّروا فى حكمة الروم والفرس على اجتهاد ، ودونوا أصول الشريعة فى مذاهب صحيحة المبدإ جميلةِ المعاد ، فانما الفضلُ فى ذلك كلّه عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منار العلم وقرّبوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعْطِيتهم بالمال الكثير ، وكان عصرهم تاجاً [١] على هامةِ الدهر ونوراً أضاء به المشرق حتى انقلب من الضَّعَة إلى سمو الارتفاع ، ومن عَماية الجهل إلى نور الاطلاع . فما هو عندى إلاّ الزمنُ الذى يبقى موسوماً عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك [٢] الذين كانوا جمالَ المشرق وحِصْنَ الاسلام وزينة العالم [٣] ومَنَعَةَ هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم إلاّ بالحيل والمكايد ، فانك لتَعلم أنّ الدعوة التى قام باعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذريّة النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ، ولم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم إليها إلاّ مقارَعة بنى أمية فى جملة من انضم اليها من أهل البيوتات ، حتى إذا خدمهم السيف رأوْا أنْ ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالحيلة التى كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمّال وإرهاق الرعية فى الخَراج ، حتى يوقع فيهم الفشل ويُقْعِدهم عن الخروج عليه فى دعوتهم ، فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يرَوْا أن يحمِلوا

---

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان (٢) الزمخشرى فى ربيع الأبرار (٣) يقول الحصرى ٢ : ١٠٣ ان أيامهم كانت روض الأزمنة

الأمة على الخلاف ضنًّا بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها فى قتال المسلمين بالمسلمين، فثبت له الملك من هذا الوجه، لم ينازعه فيه إلاّ جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمُّهم الغرض الى جامعة واحدة فى جميع الأنحاء، فلم يستطيعوا مقاومته ولا بلغوا من غرضهم الاّ أنْ جعلوا له سبيلا الى غَلَب جماعة منهم بعد جماعة، فلما تغلّب عليه حب الولد فخلع ابن عمه عن ولاية العهد وصيّرها للمهدىّ من بعده لم يكن فى الناس الاّ من ينغِّص ذلك عليه، فخاف الربيعُ أن تذهب الخلافة من وَلَده وله فى مصيرها الى المهدىّ مصلحة لا تكون فى دولة غيرِه من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم، ففتَق له عقلُه تلك الحيلةَ التى تسارع أهل الحل والعقد الى تنفيذها خوفاً من أبى جعفر لظنهم أنه حىٌّ لم يمت، فلما استوثق له الأمر استهلّ خلافته باستمالة الناس بالاحسان والمعروف حتى لا تنفِر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعةً لسيرة أبيه، وأقام لهم ديوان المظالم و رفع عنهم ضرائب الخَراج ووسّع لهم أسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم حتى استمالهم لغرضه وضار واطوعَ يمينه، فلم يبق عليه بعد ذلك الاّ أنْ يأمَن خروج أهل الدعوة فى جمع غيرِ متفرقٍ، فرأى أن يستميل اليه الحرَم الآمن وهو الموضع الذى يُنادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق فى أهله الأموال الجسام. ووالى على عامتهم جزيل الانعام، وجدّد لهم بناء البيت الحرام وعهد الى عظمائهم بالولايات والامارات، وأجرى الأرزاق الواسعة على من استخدم فى الجند من أولادهم كما علمت. فلما آلت الخلافة إلى الهادى وصارت إرثاً فى بيت أبى جعفر رأى البرامكةُ برأيهم الصائب أنْ ليس للعلويين بعد ذلك كلِّه مطمَعٌ فى المشرق بازاء العباسيين

الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم ، فانصرفوا عن تدبير أمر الحرمين لهم إلى تمهيد الطريق لخلافتهم فى المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله الى جَناحه حتى ينصرفَ عن مقارعة أهل البيت فى إفْريقيَة ويقنَع بما دبّروا له من السلطان العظيم الذى لم يكن مثلُه لأحد من الخلفاء قبلَه ، فكان بعضُ ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعيـة باللين والعطف بعـد أنْ أمّنوه خروجَهم فى دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرهم ، فجرَى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم بُرْهة من الزمان ثم غلب عليه حبّ الأَثَرَة فرجَع الى الشدة ونكّل بمن كان أحبَّ الناس اليه .

هذه هى دولة العبـــاسيين التى أشرقت شروقَ الشمس فى البهاء والعظمة ، وإنها لتحتاج الى رجال عقلاء يُديرون سياسَتها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخِبْرة بأمور الملك ماقامت لها قائمة بعد ذلك ،فاليوم أترك الاسلام بين رايات خضر وسود وبيض،فأما العَلَويون فانهم حائزون أمر المشرق وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فانهم يرتقبون الخلافةَ من وراء البحار،ويرومون إعادة الملك الذى ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم فى دِمَشْق ، والمسلمون فى عُرْض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فاذا كان هذا حالَ الدولة من العظمة وهى متفرقة على أغراض لا تضمها الى الوَحْدة فما الظن لو جمعتها عَصبية الدين إلى جامعـــة الأسلام فى المسلمين ملوك عِظام أحسبهم ينتبهون الى ما بهم من الانقسام . ويقيمون على أساس الجامعة دولة تهتزُّ لها دول الروم والله يؤْتى الملك من يشاء وينزِع الملك ممن يشاء ، لا الهَ إلا هو ربُّ العرش العظيم .

الأسفار التى وجدت بين يدىّ وأسندت اليها رواية الرحّالة

« علوم الدين والشرع »

		سنة
الاتقان فى تفسير القران للسيوطى	طبع بولاق	١٢٨٧
الأحكام السلطانية للماوردى	« بن	١٨٥٣
رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين	« بولاق	١٢٨٦
مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده	« القسطنطينية	١٢٧٦
شرح الزرقانى على موطأ الامام مالك	« بولاق	١٢٧٩
كليات أبى البقاء	« مصر	١٢٨٧

ومطالعات فى صحيح البخارى وتفسيرى الزمخشرى والبيضاوى

« علم اللغـــة »

صحاح الجوهرى . المحيط للفيروزابادى فقه اللغة للثعالبى

« الممالك والبـــلدان »

أحسن التقاسيم فى معرفة البلدان والأقاليم للمقدسى	طبع ليدن	١٨٧٧
المسالك والممالك لابن حوقل	« «	١٨٧٢
الرحلة (إلى المشرق) لابن جبير	« «	١٨٥٢
معجم البلدان لياقوت	« ليبسيك	١٨٦٦
تقويم البلدان لأبى الفداء	« باريس	١٨٤٠
المسالك والممالك لابن خرداذبه	« «	١٨٦٥
الفيض المديد فى النيل السعيد لأحمد المنوفى	« «	١٨٣٧
مسالك الممالك للاصطخرى	« ليدن	١٨٧٠
الخطط والآثار للمقريزى	« بولاق	١٢٧٠
آثار مصر لعبد اللطيف	« توبنك	١٧٨٩
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للأدريسى	« رومية	
تحفة النظار فى عجائب الأسفار لابن بطوطة	طبع باريس	١٨٥٣
أخبار العباد وآثار البلاد للقزوينى	« غوتنغين	١٨٤٨
جواهر البحور . ووقائع الدهور لابراهيم بن وصيف شاه	(خط)	
نشق الآثار . فى عجائب الأقطار لمحمد بن اياس	(«)	

السير والأخبار وأيام الناس

الكامل لابن الأثير	« بولاق	١٢٩٠

		سنة
تاريخ الملوك وأعمارهم للطبرى	طبع ليدن	١٨٨٠
ديوان المبتدا والخبر لابن خلدون	« بولاق	١٢٨٤
تاريخ أبى الفداء	« القسطنطينية	١٢٨٦
الآداب السلطانية والدول الاسلامية للفخرى	« غريفزولد	١٨٥٨
مروج الذهب للمسعودى	« بولاق	١٢٨٣
نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب للمقرى	« «	١٢٧٩
وفيات الأعيان لابن خلكان	« «	١٢٧٥
تاريخ الدول لأبى الفرج الملطى	« اكسفور	١٦٦٣
أخبار الدول والاسلام (الخميس)	« بولاق	
تاريخ الخلفاء للسيوطى	(خط)	
الأنس الجليل فى تاريخ المقدس والخليل للسيوطى	« مصر	١٢٨٣
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى	مصر طبع حجر	
النجوم الزاهرة . فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن	« ليدن	١٨٥١
أعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس للأتليدى	« بولاق	١٢٨٠
فتوح الشام للواقدى	(خط)	
آثار الأول للقرمانى	« بولاق	١٢٩٠
فوات الوفيات لمحمد بن شاكر	« «	١٧٨٢
العقد الفريد لابن عبد ربه	« «	١٢٨٣
المونس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار	طبع تونس	١٢٨٦
قضاة الشام لشرف الدين الانصارى	(خط)	
لطائف الأخبار الأول . فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . للاسحاقى	مصر	١٣٠٠
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين للشرقاوى		
مطالعات فى ابن الوردى والازرقى	مصر	١٣٠٠

العلوم الأدبيـــة

الفهرست لابى يعقوب الوراق		
حاجى خليفة . كشف الظنون . عن العلوم والفنون	« لندن	١٨٦٣
الاغانى لابى الفرج الإصبهانى	« بولاق	١٢٨٥
المقدمة لابن خلدون	« بيروت	١٨٧٩

			سنة
الملل السائر لابن الاثير	طبع	بولاق	
أدب الدين والدنيا للماوردى	»	قسطنطينية	١٢٩٩
حياة الحيوان للدميرى	»	بولاق	١٢٧٥
عجائب المخلوقات للقزوينى	»	كوتنكن	١٨٤٩
خزانة الأدب لابن حجه	»	بولاق	١٢٩١
مقامات الحريرى	»	بيروت	
مجمع الأمثال للميدانى	»	بولاق	١٢٨٤
قلائد العقيان . للفتح بن خاقان	»	باريس	١٢٧٧
المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى	»	بولاق	١٢٧٩
نهج البلاغة للامام على كرم الله وجهه	»	حجر	
طبقات الشعراء لأبى عبيدة	خط		
شرح لامية ابن الوردى للقناوى	»	مصر	١٢٧٨
سراج الملوك للطرطوشى	»	بولاق	١٢٧٩
الطبقات الكبرى للشعرانى	»	»	١٢٨٦
مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر	طبع	باريس	١٢٦٢
الكنز المدفون . والفلك المشحون للسيوطى	»	بولاق	١٢٨٨
شرح مقامات الحريرى للشريشى	»	»	١٢٨٤
الكشكول لبهاء الدين العاملى			(خط)
يتيمة الدهر. فى شعراء اهل العصر للثعالبى	»	دمشق	
زهر الآداب وثمر الالباب بهامش العقد الفريد للحصرى			
غرر النصائح الواضحة لأبى الوطواط	»	بولاق	١٢٨٤
سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى	خط		
تزيين الاسواق . فى أحوال العشاق لداود بن عمر	»	بولاق	١٢٩١
فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه	»	الموصل	١٢٦٩
كتاب ألف ليلة وليلة	»	بولاق	١٢٥١
نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشبلنجى	»	»	١٢٩٠
كليله ودمنه لابن للمقفع	»	باريس	
حلبة الكميت لشمس الدين النواجى	»	بولاق	
الموازنة بين أبى تمام والبحترى	»	القسطنطينية	١٢٨٧
مطالعات فى لطائف العرب وربيع الابرار للزمخشرى وغير ذلك			